مجلة المرابط

العدد : ١٩٨ الموافق في محرم ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٥ ميلادي

عنوان المقال : تشخيص أزمة المسلمين الأخلاقية – ٢ –	بقلم : صلاح الدين بن إبراهيم

رابعاً : أسباب الأزمة الأخلاقية :

أ- **التخلف العقيدي** : (وقد سبق الحديث عنه في العدد الماضي ١٩٧).

ب- **التخلف العلمي** : والمقصود به ؛ عدم معرفة التصرف السليم ، وبخاصة في مجال الحقوق والواجبات والعلاقات البشرية . وهذا الجهل يؤدي إلى أزمات أخلاقية خطيرة ، وسأتناول هذا الموضوع من خلال طائفة من الأحاديث النبوية لاشتمالها على فوائد كبيرة :

١- قصة جريج مع أمه

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال :

« **لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحبُ جريج ؛ وكان جريج رجلاً عابداً ، فاتخذ صومعة فكان فيها ، فأتته أمه وهو يصلي ، فقالت : يا جريج ! . فقال : يا رب أمي وصلاتي ؟ ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت . فلما كان من الغد أتته وهو يصلي ، فقالت : يا جريج ! . فقال : يا رب أمي وصلاتي ؟ ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت . فلما كان من الغد أتته وهو يصلي ، فقالت : يا جريج ! . فقال أي رب أمي وصلاتي ؟ ، فأقبل على صلاته . فقالت : اللهم لا تُمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات !.**

فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بَغيٌّ يُتمثّل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم . قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها . فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها ، فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت : هو من جريج . فأتوه ، فاستنزلوه ، وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه . فقال : ما شأنكم ؟! قالوا : زنيت بهذه البغي فولدت منك !! فقال : أين الصبي ؟ فجاؤوا به ، فقال : دعوني أصلي ، فصلى ، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال : يا غلام ! من أبوك ؟ قال : فلان الراعي . قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا : نبني لك صومعتك من ذهب وفضة . قال : لا أعيدوها من طين كما كانت . ففعلوا... » [رواه مسلم]

فلو كان جريج عالماً بالتصرف السليم ، حين تزدحم الأعمال والواجبات في وقت واحد ، لعرف كيف يتعامل مع « فقه سُلم الأوليات » ولكنه حين جهل ذلك أساء التصرف ، والإساءات تؤزم العلاقات ، وتلقي بظلال كئيبة على الأخلاق .

مجلة المرابط

العدد : ١٩٨ الموافق في محرم ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٥ ميلادي

عنوان المقال : تشخيص أزمة المسلمين الأخلاقية – ٢ –	بقلم : صلاح الدين بن إبراهيم

٢- قصة الراهب والعالم

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن نبي الله ﷺ قال :

« كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على راهب ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟. فقال : لا !!. فقتله فكمّل به مائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدلَّ على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟. قال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟! ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى ، فاعبدِ الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلقَ حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ؛ فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط !. فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » [رواه الشيخان].

يفيد هذا الحديث أن ضعف المعرفة الشرعية يفسد النظر ، ويصيب القدرة على التعامل المناسب مع الواقع البشري في مقتل . فلو كان الراهب - وهو العبد المقبل على القربات - عالماً لما أنكر على التائب عزمه على ترك ماضيه المظلم والتوجه إلى مستقبل منير ؛ فالعلم نور والجهل ظلمة ، وفرقٌ كبير بين العابد الذي يجهل فقه الشرع وفقه الواقع وبين العالم بنصوص الشرع وفقهها والبارع في تنزيلها على الواقع .

وهذه الحقيقة حين تُجهل على مستوى الأمة فإن البنيان الأخلاقي يصاب بهزات عنيفة ، فتكثر الشقوق في جدرانه وسقفه ، وتتحطم نوافذه ، وهذا ما نراه ماثلاً في واقع المسلمين اليوم .

٣- قصة معاذ وسُليم

« كان معاذ يصلي مع رسول الله ﷺ العشاء ، ثم يرجع فيصلي بأصحابه ، فرجع ذات ليلة فصلى بهم ، وصلى فتى من قومه (من بني سلمة يقال له : سُليم) فلما طال على الفتى صلى في ناحية المسجد ، وخرج وأخذ بخطام بعيره وانطلق . فلما صلى معاذٌ ذُكر ذلك له ، فقال : إن هذا به لنفاق ! ، لأُخبرن رسول الله ﷺ بالذي صنع . وقال الفتى : وأنا لأخبرن رسول الله ﷺ !.

فغدَوا على رسول الله ﷺ ، فأخبره معاذ بالذي صنع الفتى ، فقال الفتى : يا رسول الله ! يطيل المكثَ عندك ، ثم يرجع فيطيل علينا !!. فقال رسول الله ﷺ : أفتانٌ أنت يا معاذ ؟! ، وقال : للفتى : كيف تصنع أنت يا ابن أخي إذا صليت ؟. قال : أقرأ بفاتحة الكتاب ، وأسأل الله الجنة وأعوذ به من النار ، وإني ما أدري ما دندنتك ودندنة معاذ !. فقال رسول الله ﷺ : إني ومعاذ حول هاتين ، أو نحو ذا . قال : فقال : ولكنْ سيعلم معاذٌ إذا قدم القوم وقد خبّروا أن العدو قد أتوا !.

قال : فقدموا فاستُشهد الفتى ، فقال رسول الله ﷺ بعد ذلك لمعاذ : ما فعل خصمي وخصمك ؟. قال : يا رسول الله - صدق الله وكذبتُ - استُشهد » [رواه البيهقي وغيره ، وأصل القصة في الصحيحين والزيادة للإمام أحمد].

تعلمنا قصة معاذ مع سُليم مسألة ينبغي أن يتدبرها كل مسلم ، وهي :

عند الحكم على تصرفات ومواقف الآخرين فإنه لا يصح أن يتعلق مسلم بظاهر نص شرعي ، إذا كان في المسألة ذاتها نصوص أخرى ، ففي هذه الحالة يجب أن يتمرس على فقه نسبة كل نص إلى غيره من النصوص ، وأن يتعلم متى يعمل بكل نص ، لئلا يأتي من الأعمال ما يظن أن فعله مشروع في الأوقات جميعها ، وفي مختلف الظروف . فجزئية المعرفة وتفككها يسهمان في توفير البيئة المناسبة لظهور الخلافات المدمرة للأخلاق .

فليت شعري ؟! كم في دنيا المسلمين اليوم من مشكلات قاتلة ؛ فرقت قلوباً ، وبعثرت جهوداً ، وحطمت إمكانات... ويرجع السبب فيها إلى :

❋ رؤية أخطاء الآخرين وتضخيمها... مع عجز كبير عن رؤية أخطاء الذات !!.

❋ تسويغ الأعمال والمواقف بالنية الطيبة... والبعد عن النظر إلى أعمال الآخرين بالمقياس نفسه !!.

❋ الاعتماد في تقويم الآخرين على الجزئية في العلم... وفقدان النظرة الشمولية المتوازنة !!.

٤- إنما شفاء العِيِّ السؤال

عن جابر رضي الله عنه قال :

« **خرجنا في سفر ، فأصاب رجلاً منا حجرٌ ، فشجه في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه : هل**

تجدون لي رخصة في التيمم ؟. فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات .

فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ، أخبر بذلك ، فقال : قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذْ لم يعلموا ؟! إنما شفاء العِيِّ السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم » [رواه أبو داود وغيره ، وذكر الألباني في " تمام المنة " أنه حسن بمجموع طرقه].

فهذا الحديث يبين خطر أولئك الذين ينزلون « نصوص العزائم » على حالات « الرُّخص » بسبب جهلهم بما يُخرج الأحكام العادية إلى الحالات الاستثنائية ، ولا يصح حصر دلالة الحديث في الواقعة التي ورد بسببها ، فإذا عممنا ما دل عليه على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها ، فإننا ندرك عمق التوجه النبوي : « **ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟! إنما شفاء العي السؤال** ».

٥- رجلٌ يؤذي النبي ﷺ !

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

« **لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة ؛ فأعطى الأقرع ابن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عُيينة بن حصن مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة .**

فقال رجل : واللهِ إن هذه قسمةٌ ما عُدل فيها ، وما أريد فيها وجهُ الله !

فقلت : والله لأخبرن رسول الله ، فأتيته فأخبرته بما قال . فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى كان كالصِّرف ، ثم قال فمن يعدل إذا لم يعدل اللهُ ورسولُه ؟!. ثم قال : يرحم الله موسى ، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر .

فقلت : لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً » [متفق عليه . والصرف : صبغ أحمر].

فهذه القصة تدل على أن هناك ناساً تقيدهم التصرفات والأحكام العادية ، فإذا رأوا تغييراً اقتضته ظروف استثنائية ، فإنهم يعجزون عن رؤية المتغيرات والمقاصد ، وقد يسيئون الظن ، وربما أحدثوا بلبلة أو فتنة وهم يظنون أنهم محسنون .

٦- قصة سلمان مع أبي الدرداء

عن وهب بن عبد الله رضي الله عنه قال :

« **آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ،**

فقال : ما شأنك ؟!. قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا !.

فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاماً ، فقال له : كُلْ فإني صائم .

قال : ما أنا بآكل حتى تأكل !.

فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، فقال له : نم . فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال له : نم . فلما كان آخر الليل قال سلمان : قُم الآن . فصليا جميعاً ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعطِ كلَّ ذي حق حقه !

فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له ، فقال ﷺ : صدق سلمان » [رواه البخاري].

فهذه القصة تفيد أن هناك ناساً تؤثر طبائعهم في إبراز بعض المعاني المشروعة على حساب معانٍ أخرى ، وصنيعهم هذا يؤدي إلى خلل في العلاقات إذا لم يُتدارك .

❋ ❋ ❋

من هذا العرض الذي اعتمدت فيه على الحديث النبوي أصل إلى تسجيل عدد من الملاحظات ، وآمل أن ينتبه إليها تيار التجديد الإسلامي :

❋ إن العجز عن التعامل السليم مع « فقه الأولويات » يؤدي إلى خلل في العمل ، وهذا الخلل يطعن الأخلاق في الصميم . وهو ما نراه ظاهراً في الأمة ، بل لم يسلم منه معظم أبناء التيار الإسلامي الساعي إلى تجديد الدين ، وهذا يعني أن هناك حاجة ماسة للاهتمام بالتكوين العلمي الشرعي المرتبط بفقه الواقع .

❋ إن غالبية فصائل الحركة الإسلامية المعاصرة يصدق في وصفهم قول الشاعر :

إن الشجاعة في القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلا

وشجاعة العقل هي العلم الذي يورث الحكمة في المواقف والتصرفات ، وفي مواجهة الأزمات والتحديات ، وفي السلوك الفردي والجماعي .

❋ إن الفهم الجزئي للإسلام ، أو تغليب جانب منه عند التطبيق ، لا خوف منه إذا كان حالة فردية ، عندئذ يتمكن المجتمع ، أو الجماعة ، من رد المخطئ إلى الصواب بتعليمه أو تذكيره ، ولكن الخوف كل الخوف عندما تصبح « الجزئية في العلم » و « المزاجية في العمل » حالة أمة أو جماعة...

عندها لا ينفع كثيراً وجودُ أفراد ناجين من هذه الأوبئة التي تفتك بأخلاق الجماعات والأمم... وهذا حال المسلمين اليوم باعتبارهم أمة... وليس حال الحركات الإسلامية بأفضل كثيراً في هذا الجانب .

❋ لقد حركت جماعات الدعوة إلى تجديد الإسلام المعانيَ الأخلاقية عند المسلمين ، ودعت إلى صبغ الحياة بها ، ولكن تقرير الحقائق وتقعيد القواعد شيء ، وتحويل المقررات إلى واقع وسلوك شيء آخر . والمطلوب من حركة التجديد توفير المعرفة وتكوين المحاضن التربوية المساعدة على بناء الصرح الأخلاقي على أساس متين من العلم .

للموضوع بقية